

الأزمة والرؤية في رواية (المتشائل) لإميل حبيبي



د. سناء الشعلان

الأردن

نستطيع القول إن رواية (الوقائع الغريبة في اختفاء سعيد أبي النحس المتشائل) للروائي الفلسطيني إميل حبيبي قد كانت أداة تعبيره عن أزمته وأزمة عصره، وفضح معطيات واقعه وتساقط الكثير من رموزه، وترك بصمة غضبه وسخطه في سجل الإبداع؛ وقد انطلق من أزمته الخاص، واستعار شخصية (سعيد المتشائل)، ثم يسكب أزمته فيه، بعد أن قرّر (سعيد) أن يخوض معركة دونكشوتية فاشلة مع أوهامه التي تقترض أن من الممكن للفلسطيني أن يعيش مواطناً آمناً ومحترماً وكريمًا في دولة الكيان الصهيوني، لقد خاض مغامرات طويلة في هذا الشأن، ثم خلص إلى أنه مخدوع كبير، وعليه أن يؤمن أن الطريق الوحيد للفلسطيني هو طريق الكفاح المسلح لأجل تحرير وطنه فلسطين من كل غاصب.

ف(إميل حبيبي) في روايته التي كتبها في حيفا عام 1974 بتصدي للفترة الزمنية من 1948-1972 من عمر القضية الفلسطينية، وقد صور في روايته حياة الفلسطينيين على مدى عشرين عامًا في ظل الاحتلال الإسرائيلي. وهي تمثل وثيقة اجتماعية تاريخية تسرد قصة شعب أقتلع من وطنه، لتغدو هذه الرواية ملحمة فلسطينية. وهي تتكون من ثلاثة كتب تقع في مجلد واحد.

فهذه الرواية تغطي فترة عشرين سنة من القضية الفلسطينية، وحين تاريخيتين هما: حرب عام 1948، وحرب عام 1967، وتستعرض حياة العرب الفلسطينيين الذين ظلوا تحت حكم إسرائيل بعد الهجرة القسرية الجماعية التي تلت هاتين الحربين. و(إميل حبيبي) يلجأ إلى شخصية (سعيد) الفارس المنكود المتغابي الواهم كي يضعنا أمام حوادث التاريخ المعاصر، ويقدم لنا بدقة بعض التفاصيل عن وضع العرب الصعب وما يلاقونه من مهانة في ظل الاحتلال الصهيوني، وعن نضال العرب لمجابهة هذا الاحتلال.

وقد اختار (إميل حبيبي) أن يحمل بطل روايته اسمًا

طريقًا وغريبًا؛ إذ يسميه (سعيد) المتشائل، وهو يقوم برحلة طويلة ومؤلمة من داخل فلسطين إلى لبنان بعد احتلال فلسطين من قبل اليهود عام 1984، ثم يعود إليها مواطنًا من الدرجة الثانية في دولة الكيان الصهيوني، وهناك يعمل في وظيفة ولاء لعدوه على أمل أن يصبح جزءًا من جسد هذا العدو، ولكنه يخفق في ذلك على الرغم من إخلاصه الشديد لهم.

لقد اختار (سعيد) الفارس المتغابي المعروف بذعره وحمافته كي يندمج في مجتمع الكيان الصهيوني، ولقد ذاق الدل في سبيل ذلك، إلى أن دخل المعتقل الصهيوني بعد عام 1967 بسبب خطأ اقتصره، وكان دوره عندئذ أن يتابع لعب دور الجاسوسية على أبناء شعبه من المقاتلين داخل المعتقل، ولكنه هناك التقى بأحد مقاتلي المقاومة الفلسطينية، وهذا اللقاء قلب حياة (سعيد) وشخصيته ومواقفه وأفكاره.

وبعد خروجه من السجن يجد نفسه غير قادر على التعاون مع الأعداء، فيدخل المعتقل الإسرائيلي مرارًا حيث يُهان ويعدّب، وفي نهاية المطاف يعجز عن الالتحاق بالمقاومة الفلسطينية، ويجد نفسه في مأزق لا حل له، وهو الجلوس فوق خازوق.

لقد سخر (إميل حبيبي) في رواية من حقبة كاملة، ومن كل من أراد أن يسخر منه. وحين سئل عن السخرية في الأدب؟ أجاب "ما من أدب عريق لأمة عريقة خلا من السخرية، وحين سئل ممن يسخر، أجاب أنه يسخر من الدولة العبرية، من الظالمين فيها، فحين لا يقوى على الحصول على سلاح يوازي سلاح الآخر، فتمتة سلاح السخرية الذي يقول للظالم إنه بغيه يريده، وإن الضعيف يمكن أن يجابه عدوه بهذا السلاح. وأجاب إميل إنه يسخر أيضًا من أبناء شعبه الذين لهم من العيوب ما لهم، وهو يأمل بسخريته أن يعالج هذه العيوب وتلك الأفات".⁽¹⁾

رواية (المتشائل) قد استطاعت أن تكون جنسًا أدبيًا

ديموقراطيًا، وهي بذلك تبحث عن واقع آخر خلف الذي تعيشه، إنها باختصار ترفض الواقع، وتهزأ منه، وترسم العالم الواقع الحاضر وهي تشير إلى عالم آخر منشود، وبذلك تكسّر ديموقراطية الرواية عندما "تري الواقع المعيش واقعيًا آخر، وتري الواقع المعيش متبدلاً متحوّلًا قابلاً للاستبدال لآخر... حيث أنّ الروائي يعلم شخصياته، ويتعلم منها، ويضع على لسانها كلامًا أرادته وتلقته كلامًا مغايرًا حين نشأ"⁽²⁾. لقد كانت السخرية عند (إميل حبيبي) هي طريقتة كي يحمي ذاته الهشة، وهي أداة للتعبير عن مأساة لا تستطيع الذاكرة احتمال تفاصيلها⁽³⁾.

وهكذا نرى أن (المتشائل) هو درس في النضال صاغه (إميل حبيبي) في شكل جديد فرضته رؤيته الخاصة، فهو يحاول تأريخ قضية شعبه عبر مراحل القضية وتشابكها، ويضع يده على مادة وافرة من حياة الجماهير الفلسطينية المنقلة بالجراح والنكبات. وفي مجمل ما نقرأه في (المتشائل) يقف المغزى المهم الذي يدعونا للبحث عن ذواتنا واكتشاف القدرات الكامنة فيها، مع ضرورة المراجعة الواسعة مع الذات والحوار الطويل مع النفس في محاولة لاستيعاب ما حدث وتحصن وترقب لما سيحدث⁽⁴⁾.

وفي ذلك يقول (إميل حبيبي) في لقاء صحفي معه: "إنني لا أستطيع أن أتخلص من ماضي السياسة. والسبب الأساسي الثاني، هو أنني أفتق نفسي بأنني أعالج سياسة طالما حملت بها. وأشعر بمسؤوليتي الشخصية عن مستقبل هذه السياسة. يعني لما جاءت السياسة التي حملت بها - أتخلى عنها؟! أنا مش عارف!! أنا عمومًا لا أتجنّ إلى العمل الأدبي إلا حين أشعر بالاختناق"⁽⁵⁾

إنّ "تمحور هذا البعد الموقفي لهذه الرواية حول صورة الشعب الفلسطيني داخل الأرض المحتلة في مواجهة الأعداء إضافة إلى محاولة الكاتب جمع تاريخ فلسطين داخل حزمة واحدة ليؤكد على تواصل الزمن التاريخي لهذه الأرض، ويؤكد على ذاته المتأصلة من جهة أخرى"⁽⁶⁾.

(إميل حبيبي) يبدأ روايته عنوان جانب وتمهيد يسميه الكتاب الأول، ويعقده تحت عنوان (يُعاد)، فالعنوان الجانبي قبل التمهيد يسميه (مسك الختام)، وهو ينقل عبره مقطوعة شعرية تسمح للقاسم، وهو يختم هذا العنوان بقول الشاعر: "أخلعوا ثياب نومكم، واكتبوا إلى أنفسكم، رسائلكم التي تشتهون"⁽⁷⁾. وهو عبر هذه المقطوعة يقدم عتبة سيمائية تقودنا إلى أن نقول إن (إميل حبيبي) يعترف ضد نفسه، وهو اعتراف زائف يريد أن يدين عصرًا كاملًا، ويفضح معاناة الشعب الفلسطيني في محنة احتلال وطنه؛ فهو يعترف بخليته، ويلصقها بنفسه ظاهريًا، ولكنه حقيقة يريد أن يسقطها على الآخر؛ فعتبة الرواية عنده ماهي إلا تصريح بهدف الرواية، وهو سب كل خائن، وتجريمه، وتعريته أمام العصر.

كما أنّ (إميل حبيبي) يستدعي في روايته المرأة لتقوم بدورها الوطني المأمول والحيوي والمهم والأساسي، وهو الدفاع عن فلسطين، وتربية الأبناء وشحن الأزواج في سبيل تحرير الوطن مهما غلا الثمن. ولذلك كانت الحبيبية في

روايته هي امرأة الحقيقة التي تعيش في التّاريخ والوجدان وفي قلب الصّراع، وتتصر على الأثم والحزن والاستبداد، وترفض أن تسقط في الوهم والاستلاب والأحلام كما حدث مع (سعيد المتشائل)، بل كانت المنتصرة والقوية في هذه الرواية.

ف(إميل حبيبي) يستدعي في روايته ثلاث حبيبات، وقد سمى كل واحد من الأجزاء الثلاثة من روايته باسم واحدة من تلك الحبيبات، وهذا الاختيار لم يأت عبثًا؛ فإعاد الحفاوية⁽⁸⁾ تمثّل المرحلة السابقة على النكبة الفلسطينية عام 1984، أما باقية الطنطورية⁽⁹⁾، فتمثّل روح المقاومة والتشبّث بالأرض والهوية العربية في وجه محاولات الاقتلاع والتّرحيل بعد النكبة حتى وقوع بقية الأراضي الفلسطينية في الأسر مع هزيمة عام 1967، أمّا يُعاد الثانية، ابنة يُعاد الأولى، فإنها تجسّد المرحلة الجديدة من الوعي الفلسطيني الذي تبلور بعد نكسة عام 1967، وانطلاق الثورة الفلسطينية⁽¹⁰⁾.

والحبيبات الثلاث ناضلن ضدّ العدو الصهيوني، ورفضن أن يستسلمن له مثلما فعل (سعيد)، ورفضن فكرة الذّوبان في الكيان الصهيوني، ودعين إلى فكرة واحدة، وهي الكفاح المسلح لتحرير الوطن، وكان لهنّ دور نضالي وفعل ثوري، وحملن عبء قضيتهنّ، وشاركن بالدفاع عن وطنهنّ، وحرصن على ذلك. لقد انطلق (إميل) في تصويرهن من اتجاه واضح عند الكتاب الفلسطينيّين الذين غالبًا ما ينظرون إلى المرأة الثّورة نظرة تقدير واحترام لأنّها ثائرة أكثر من الثّورة⁽¹¹⁾.

فإن كان الرّجل العربيّ ثائرًا على الاحتلال، وما يمثّله من قهر قوميّ وعلى علاقات الإنتاج، وما يمثّله من قهر اقتصادي واجتماعي، فالمرأة العربية (الفلسطينية) ثائرة مثله على الفهرين كليهما، كما أنّها ثائرة على واقعه الاجتماعي الذي يكبلها، وثائرة على أنوثتها التقليديّة وعلى ما تتمتع به المرأة العربية عادة من حياة رغدة كسولة⁽¹²⁾. وكانت هذه الثّورة تُرسم ضمن صحة وصدق من التفاصيل التي تحيط بالشخصيات النسوية⁽¹³⁾.

"أما الدّور الذي تجلّى للمرأة في هذه الرواية، فأقلّ ما يقال فيه أنه خرق للمألوف والسائد في تصوير المرأة في الأدب، فهي - هنا - تضطلع بدور غير هامشيّ، فعلى خلاف العادة هي التي تحاول إنقاذ الرّجل البطل من محنته، وهي التي تحاول اكتشاف الكنز، وتزويد المقاوم بالسلاح، وهي التي ترفع راية الصّمود والعصيان في وجه الاحتلال والجلادين. وتتخطّى في ذهابها وقدمها ما هو ممكّن، وتتجشّم ما لا يُمكن، مؤكّدة بذلك أنّ البنية الظاهرة في الرواية تخفي وراءها بنية أخرى، فالجيل المهزوم المتهاوي لا يحول دون أن ينبثق منه جيل آخر يقول للنكبة وللنكسة: لا، وللاعداء أنّ يقفوا حيث هم، فقد كسّر حاجز الخوف، وولّى زمن العملاء إلى غير رجعة"⁽¹⁴⁾

نستطيع القول إنّ المرأة الحبيبية عند (إميل حبيبي) كانت صوت الحقيقة وصوت الضّمير ومؤشّر بوصلة الدرب الصحيح، ولكن (سعيد) صمّم على أن يعيش أوهام العشق،

معلومات الكتاب

الكتاب: "المتشائل، الوقائع الغريبة في اختفاء سعيد

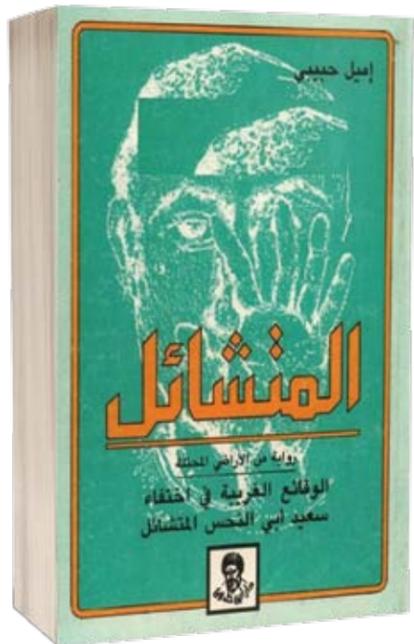
أبي النحس المتشائل"

المؤلف: إميل حبيبي

الناشر: دار ابن خلدون

تاريخ النشر: 1-1-1980

عدد الصفحات: 240 صفحة .



وأن يتخيّل نفسه فارس قصّة عشق كبيرة، وأن عليه أن يندّر لحبيبتة بطولاته المزعومة التي لم تكن إلا سقوطًا خلف سقوط.

الإحالات والمراجع:

- 1 - عادل الأسطة: كافر سبت، المنتدى الثقافي الفلسطيني، عدد 28/أغسطس/2012، الرباط، <http://www.tanwer.org/tanwer/news/2031.html>
- 2 - فيصل مزاج: أثر دن كيجوته في الأدب، صحيفة الحياة اللبنانية، برميلانيا، لندن، 2007/7/27.
- 3 - صقر أبو فخر: إميل حبيبي، انتشار الهوية وفق المبدع، موقع صوت الدين لا صوت لهم، كانون الثاني 2013 الرباط، <http://palestine.assafir.com/Article.aspx?ArticleID=2440>
- 4 - حبيب بولس: إصابات إميل حبيبي للجانج القصص، موقع رابطة أدباء الشام، الرباط، <http://www.odabasham.net/show.php?sid=37420>
- 5 - مشارف الحيفاوية، حيفا، فلسطين، العدد 9، حزيران 1996، ص 23.
- 6 - سعيد محمد النفوس: جدلية الأنا والآخر في رواية المتشائل نموذجاً، مجلة الجامعة الإسلامية، المجلد 19، العدد 1، 2011، ص 868
- 7 - إميل حبيبي، الوقائع الغريبة في اختفاء سعيد أبي النحس المتشائل، ص 7.
- 8 - حيفا، مدينة ساحلة فلسطينية، تقع على ساحل البحر الأبيض المتوسط.
- 9 - الطنطورية، قرية فلسطينية تقع جنوب مدينة حيفا. وقد قامت المنظمات الصهيونية المسلحة بهدم القرية وتشريد أهلها في عام 1948.
- 10 - وهاب زبادي، المرأة الفلسطينية بين العبودية والعودة في رواية الوقائع الغريبة في اختفاء سعيد أبي النحس المتشائل (إميل حبيبي)، ص 1، مركز بديل، بيت لحم، فلسطين، 2011، ص 19.
- 11 - حسان الشامي، المرأة في الرواية الفلسطينية 1965-1985، ص 1، اتحاد الكتاب العرب، سوريا، دمشق، 1998، ص 191.
- 12 - أحمد أبو مطر، الرواية العربية في الأدب الفلسطيني 1950-1975، ص 1، المؤسسة العربية للدراسات، لبنان، بيروت، 1980، ص 386.
- 13 - ماجدو حمودة، المرأة في روايات سحر خليفة، المعرفة، 1994، ص 373، سوريا، دمشق، ص 196.
- 14 - إبراهيم خليل، راتعة (إميل حبيبي) "الوقائع الغريبة" في ضوء التحليل الثقافي، موقع قاب قوسين، 12/5/2011، الرباط، www.qabaqaosayn.com